

الفصل الخامس

ابن قتيبة
وكتابه الشعر والشعراء

ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ)،
علم من أعلام الثقافة العربية في القرن الثالث الهجري أو واحد من
كتابها الموسوعيين الذين تركوا مؤلفات شتى في معارف مختلفة،
وهي سمة اشتهر بها الكثيرون من أمثال الجاحظ وأبي حيان
التوحيدي.

وقد أشار بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي إلى عدد
من مؤلفاته منها :

- 1 - عيون الأخبار
- 2 - الشعر والشعراء
- 3 - المعارف
- 4 - معاني الشعر
- 5 - أدب الكاتب
- 6 - التسوية بين العرب والعجم
- 7 - تأويل مختلف الحديث
- 8 - تأويل مشكل القرآن (انظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي
2 / 222 وما بعدها)

ونعرض في هذه الصفحات لكتابه الشعر والشعراء، وكما
يتضح من عنوانه هو كتاب يحمل شقين الأول الشعر وما يتضمنه
من بحث في فهم الشعر وأحواله، والشق الثاني يتعلق بتراجم

الشعراء، ويحدد ابن قتيبة منهجه في هذا الكتاب، ويقول إنه كتاب يشتمل على التعريف بالشعراء وأزمانهم وأحوالهم في أشعارهم، وعن مكانة كل شاعر بين سابقيه ولاحقيه، ويحدد من عرف من الشعراء باسمه أو كنيته أو لقبه، ثم بين أنه قصد من الشعراء المشهورين الذين يعرفهم أهل الأدب، أما ما دون ذلك فقد أهمل، وهو إهمال من وجهة نظره له ما يبرره؛ فالشاعر الذي يهمله غير معروف له نسب أو أخبار معروفة أو نادرة أو أشعار تستحق الوقوف عندها، يقول:

"قال أبو محمد: وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأما من خفي اسمه، وقل ذكره، وكسد شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة. إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً من هذه الطبقة، وإذ كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمى لك أسماء لا أدل عليها بخبراً أو زمان، أو نسبٍ أو نادرة، أو بيتٍ يستجاد، أو يستغرب.

ولعلك تظن رحمك الله أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً إلا ذكره وذلك عليه، وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار، والملوك والأشراف،

الذين يبلغهم الإحصاء، ويجمعهم العدد والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام، أكثر من أن يحيط بهم محيطٌ أو يقف من وراء عددهم واقفٌ، ولو أنفد عمره في التنقيب عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال. ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعرٌ إلا عرفه، ولا قصيدةٌ إلا رواها " (الشعر والشعراء / 1)

أى إن هناك من الشعراء من يكثر أخباره، أو ارتبطت أشعاره بمواقف مشهورة، أو يحفظ له النحاة أبياتاً يحتكمون إليها، وهم الأولى في الذكر، وهو ما يمكن أن يلحظه القارئ للتراجم الموجودة عن فحول الشعراء المشهورين من أمثال امرئ القيس وزهير وحسان والحطيئة.... وغيرهم.

وهناك من الشعراء من يكتفى بذكر اسمه وقبيلته ثم يتوقف أمام قصيدة من قصائده أو أكثرها لشهرتها أو لجودتها على نحو ما ترجم للشاعر الصلتان العبدى.

ثم يشرح ابن قتيبة فكرة أن الهدف من الكتاب ليس الاستقراء الكامل لكل الشعراء في العربية، موضحاً أن الأفراد يعجزون عن جمع شعر قبيلة واحدة دون أن يفوتهم شاعر أو قصيدة، من ثم كان قصده أن يترجم للمشهورين من الشعراء.

أما البناء الخاص بالكتاب فقد بدأ بمقدمة نظرية مهمة تمثل الشق الأول من الكتاب؛ أعنى مقدمته عن الشعر، وأهم ما جاء فيها حديثه عن كون الشعر موهبة لا تقتصر على طائفة من

البشر في زمان محدد أو مكان معلوم، وأن هناك من المحدثين من سبقوا إلى أشياء، وهناك من المتقدمين من تفوق؛ أي إن التمييز بين شعر المتقدمين والمحدثين مقياسه الجودة وليس أسبقية الزمان، يقول "ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيل من في قلد، أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظاً، ووفرت عليه حقه فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شرف خارجياً في أوله، فقد كان جريراً والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين. وكان أبو عمر وابن العلاء يقول لقد كثرت هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته

ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعده العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباههم. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه. كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه"

ثم يبين أنه تحدث عن قضايا أخرى متعلقة بالشعر فى كتبه الأخرى فلم يذكرها هنا، منوها إلى مواضعها، يقول .:

وكان حق هذا الكتاب أن أودعه الأخبار عن جلاله قدر الشعر وعظيم خطره، وعمن رفعه الله بالمديح، وعمن وضعه بالهجاء وعمما أودعته العرب من الأخبار النافعة، والأنساب الصحاح، والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة، والعلوم فى الخيل، والنجوم وأنوائها والاهتداء بها، والرياح وما كان منها مبشراً أو جائلاً، والبروق وما كان منها خلباً أو صادقاً، والسحاب وما كان منها جهاماً أو ماطرأ، وعمما يبعث منه البخيل على السماح، والجبان على اللقاء، والدنى على السمو غير أنى رأيت ما ذكرت من ذلك فى كتاب العرب كثيراً، كافياً، فكرهت الإطاعة بإعادته، فمن أحب أن يعرف ذلك، ليستدل به على حلو الشعر ومره. نظري فى ذلك الكتاب، إن شاء الله تعالى"

ثم تناول بعد ذلك أقسام الشعر مبينا أن التفاوت يقع فى الشعر من حيث اللفظ والمعنى، فمن الشعراء من يحسن لفظه ويقصر معناه، ومنهم من يحسن لفظه ومعناه، ومنهم من يقصر لفظه ويحسن معناه، ومنهم من يتأخر لفظه ومعناه، ثم يردف ذلك بحديث طويل عن الأحوال التى تصاحب كتابة أو قول القصيدة عند الشاعر، وبعد ذلك يأتى القسم الثانى من الكتاب يترجم فيه لمائتين وستة شعراء يبدأ بامرئ القيس وينتهى بأشجع السلمى .

وفيما يلي نقدم نموذجين لترجمته للشعراء الأول الشاعر لقيط بن معمر، وهو يمثل النموذج الذي يرتبط بكثرة الأخبار مع جودة الشعر، والنموذج الثاني الصلتان العبدي وهويتوقف أمام قصيدتين مشهورتين له

(1) لقيط بن معمر

هو لقيط بن معمر، من إيادٍ، وكانت إياداً أكثر نزارٍ عدداً، وأحسنهم وجوهاً، وأمدهم وأشدهم وأمنعهم، وكانوا لقاحاً لا يؤدون خرجاً، وهم أول معدى خرج من تهامة، فنزلوا السواد، وغلبوا على ما بين البحرين إلى سنداد والخورنق، وسنداد نهرٌ كان بين الحيرة إلى الأبله، وكانوا أغاروا على أموالٍ لأنوشروان فأخذوها، فجهز إليهم الجيوش، فهزموهم مرةً بعد مرة، ثم إن إياداً ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة، فوجه إليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفاً في السلاح، وكان لقيط متخلفاً عنهم بالحيرة، فكتب إليهم:

سَلَامٌ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقَيْطٍ	إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادٍ
بَأَنَّ اللَّيْثَ كَسْرَى قَدْ أَتَاكُمْ	فَلَا يَشْغَلُكُمْ سَوْقُ النَّقَادِ
أَتَاكُمْ مِنْهُمْ سِتُّونَ أَلْفًا	يَزُجُونَ الْكَتَائِبَ كَالْجَرَادِ
عَلَى حَقِّ أَتَيْتَكُمْ فَهَذَا	أَوْ أَنْ هَلَكَكُمْ كَهَلَكَ عَادِ

فاستعدت إيراداً لمحاربة جنود كسرى، ثم التقوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً، أصيب فيه من الفريقين، ورجعت عنهم الخيل، ثم اختلفوا بعد ذلك، فلحقت فرقة بالشأم، وفرقة رجعت إلى السواد، وأقامت فرقة بالجزيرة.

وفي هذه القصة يقول أيضاً لقيطٌ في قصيدته "يا دارَ عبلةٍ من مُحْتَلِّها الجَرَعَا"

يا لَهْفَ نَفْسِي إِنْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ أَحْرَارُ فَارِسِ أُنْبَاءُ الْمُلُوكِ لَهُمْ فَهُمْ سِرَاعٌ إِلَيْكُمْ بَيْنَ مُلْتَقَطِهِ هُوَ الْجَلَاءُ الَّذِي تَبَقِيَ مَذَلَّتُهُ فَوُومُوا قِيَاماً عَلَى أَمْشَاطِ أَرْجُلِكُمْ وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُكُكُمْ لَا مُتْرَفاً إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدُهُ مَا زَالَ يَحْلُبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطَرُهُ حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرِّ مَرِيرَتِهِ	شَتَّى وَأُبْرِمَ أَمْرُ النَّاسِ فَاجْتَمَعَا مِنَ الْجُمُوعِ جُمُوعٌ تَزْدَهِي الْقَلْعَا شَوْكاً وَأَخْرَ يَجْنِي الصَّابَ وَالسَّلْعَا إِنْ طَارَ طَائِرُكُمْ يَوْمًا وَإِنْ وَقَعَا ثُمَّ افْرَعُوا قَدْ يَنَالُ الْأَمْنَ مَنْ فَرَعَا رَحَبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلْعَا وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا يَكُونُ مُتَّبِعاً طَوْرًا وَمُتَّبَعَا مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعَا
--	--

(2) الصلتان العبدى

هو قثم بن خبيئة، من عبد القيس.

واجتمع إليه في الحكم بين الفرزدق وجريير، فقال:

أَنَا الصَّلْتَانِيُّ الَّذِي قَدْ عَلِمْتُمْ أَتَتْهُ تَمِيمٌ حِينَ هَابَتْ قُضَائِهَا كَمَا أَنْفَذَ الْأَعَشَى قُضِيَّةَ عَامِرٍ وَلَمْ يَرْجِعِ الْأَعَشَى قُضِيَّةَ جَعْفَرٍ	مَتَى مَا يُحْكَمُ فَهُوَ بِالْحَقِّ صَادِعُ وَإِنِّي لِبِالْفَضْلِ الْمُبِينِ قَاطِعُ وَمَا لِنَمِيمٍ فِي قُضَائِي رَوَاجِعُ وَلَيْسَ لِحُكْمِي آخِرَ الدَّهْرِ رَاجِعُ
--	---

سَأَقْضِي قَضَاءَ بَيْنَهُمْ غَيْرِ جَائِرٍ
قَضَاءَ أَمْرِيءَ لَا يَتَّقِي الشُّنْمَ مِنْهُمْ
قَضَاءَ أَمْرِيءَ لَا يَرْتَشِي فِي حُكُومَةٍ
فَإِنْ كُنْتُمْ حَاكِمْتُمَانِي فَأَنْصِتَا
فَإِنْ تَرْضِيَا أَوْ تَجْزَعَا لَا أَقْلِكُمَا
فَأُقْسِمُ لَا أَلُو عَنِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ
فَإِنْ يَكُ بَحْرُ الْحَنْظَلِيِّينِ وَاحِدًا
وَمَا يَسْتَوِي صَدْرُ الْقَنَاةِ وَرُجُهَا
وَلَيْسَ الدُّنَابِيُّ كَالْقُدَامَى وَرِيشِهِ
أَلَا إِنَّمَا تَحْظَى كَلِيبٌ بِشَعْرِهَا
وَمِنْهُمْ رَوْسٌ يُهْتَدَى بِصُدُورِهَا
أَرَى الْخَطْفَى بَدَّ الْفَرَزْدَقَ شِعْرَهُ
فَيَا شَاعِرًا لَا شَاعِرَ الْيَوْمِ مِثْلَهُ
جَرِيرٌ أَشَدُّ الشَّاعِرِينَ شَكِيمَةً
وَيَرْفَعُ مِنْ شِعْرِ الْفَرَزْدَقِ أَنَّهُ
وَقَدْ يُحْمَدُ السَّيْفُ الدَّدَانَ بِجَفْنِهِ
يُنَاشِدُنِي النَّصْرَ الْفَرَزْدَقُ بَعْدَمَا
فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي وَنَصْرَكَ كَالَّذِي
وَقَالَتْ كَلِيبٌ قَدْ شَرَفْنَا عَلَيْكُمْ

وقال جريرُ الصلتان:

أَقُولُ وَلَمْ أَمْلِكْ سِوَابِقِ عَبْرَةٍ

فَهَلْ أَنْتَ لِلْحُكْمِ الْمُبَيِّنِ سَامِعٌ
وَلَيْسَ لَهُ فِي الْمَدْحِ مِنْهُمْ مَنَافِعُ
إِذَا مَالَ بِالْقَاضِي الرُّشَا وَالْمَطَامِعُ
وَلَا تَجْزَعَا وَلَيْرِضَ بِالْحَقِّ قَانِعُ
وَلِلْحَقِّ بَيْنَ النَّاسِ رَاضٍ وَجَازِعُ
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَعْدِلْ فَقُلْ أَنْتَ ضَالِعُ
فَمَا تَسْتَوِي حَيْثَانُهُ وَالضَّفَادِعُ
وَمَا يَسْتَوِي شُمُّ الدَّرِيِّ وَالْأَكَارِعُ
وَمَا تَسْتَوِي فِي الْكَفِّ مِنْكَ الْأَصَابِعُ
وَبِالْمَجْدِ تَحْظَى دَارِمٌ وَالْأَقَارِعُ
وَالْأَذْنَابُ قَدَمًا لِلرَّوْسِ تَوَابِعُ
وَلَكِنْ خَيْرًا مِنْ كَلِيبٍ مُجَاشِعُ
جَرِيرٌ وَلَكِنْ فِي كَلِيبٍ تَوَاضِعُ
وَلَكِنْ عَلْتُهُ الْبَاذِخَاتُ الْفَوَارِعُ
لَهُ بَاذِخٌ لِيَذِي الْخَسِيسَةَ رَافِعُ
وَتَلْقَاهُ رَتًّا غَمْدُهُ وَهُوَ قَاطِعُ
أَلَحَّتْ عَلَيْهِ مِنْ جَرِيرٍ صَوَاقِعُ
يُبَيِّتُ أَنْفَا كَشَمَّتُهُ الْجَوَادِعُ
فَقُلْتُ لَهَا سُدَّتْ عَلَيْكَ لِمَطَالِعُ

متى كان حُكْمُ اللَّهِ فِي كَرَبٍ لِنَحْلٍ

والصلتان هو القائل:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْتَى الْكَبِي
إِذَا هَرَمَتْ لَيْلَةٌ يَوْمَهَا
نَرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا
تَمُوتُ مَعَ الْمَرءِ حَاجَاتُهُ
إِذَا قُلْتَ يَوْمًا مَنْ قَدْ تَرَى
أَلَمْ تَرَ لِقْمَانَ أَوْصَى بِنِيهِ
بُنَى بَدَا خَبَاءُ نَجْوَى الرِّجَالِ
وَسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ امْرِئٍ
فَكُنْ كَابِنِ لَيْلٍ عَلَى أَسْوَدٍ
فَكُلِّ سَوَادٍ وَإِنْ هَبَّتْهُ
أَرِدْ مُحْكَمَ الشُّعْرِ إِنْ قُلْتَهُ
كَمَا الصَّمْتُ أَدْنَى لِبَعْضِ اللِّسَا

رَكَرُ اللَّيَالِي وَمَرُّ الْعَشَى
أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتَى
وَحَاجَةٌ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقُضِي
وَتَبَقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقَى
أَرُونِي السَّرِيَّ أَرُوكَ الْغَنِيَّ
وَأَوْصَيْتُ عَمْرًا وَنَعَمَ الْوَصِيَّ
فَكُنْ عِنْدَ سِرِّكَ خَبَاءَ النَّجَى
وَسِرُّ الثَّلَاثَةِ غَيْرُ الْخَفَى
إِذَا مَا سَوَادٌ بَلِيلٌ حُشَى
مِنَ اللَّيْلِ يَخْشَى كَمَا تَخْشَى
فَإِنَّ الْكَلَامَ كَثِيرُ الرُّوَى
نِ وَبَعْضُ التَّكْلَمِ أَدْنَى لِعَى